أفق الخطاب النقدي ومنطلقاته المعرفية والفكرية والفلسفية في مشروع إقبال الحضاري

عاشور مزيلخ*

الملخص

تدرس هذه الورقة المنطلقات المعرفية والفكرية والفلسفية لخطاب محمد إقبال في مشروعه الحضاري، المتميز بطابعه النقدي وبالتحليل المنطقي الرزين، وتبين إسهامه الإيجابي في نقد تلك المنطلقات الخاصة بالحضارة الغربية في مقابل ما يلزم لبناء الهوية المميزة لذات الإسلامية وخصوصيتها. وتعتمد الدارسة على كتاباته ومؤلفاته التي تمثل في مجموعها مشروعاً نقدياً لبناء الشخصية الإسلامية المعاصرة.

وأظهرت هذه الدراسة تميز خطاب إقبال النقدي بطابع خاص هدفه ترقية المجتمع روحياً، والالتزام بالتربية الروحية كما أمر بها الإسلام، وتأسيس منظومة المعرفة الإسلامية قوامها القرآن، والحديث، والإجماع، والقياس.

الكلمات المفتاحية: أفق الخطاب، المنهج النقدي، المنطلقات الفلسفية، المنطلقات الفكرية، المنطلقات المعرفية، المشروع الحضاري.

Critical Discourse Horizon of Iqbal Cultural Project and its epistemological, Intellectual and Philosophical Premises

Abstract

This paper examines the epistemological, intellectual and philosophical premises of critical discourse of Iqbal cultural project which is distinguished by its outstanding critical nature and sober logical analysis. The paper delineates the positive contribution of his criticism premises of Western civilization, and what it takes to construct a distinctive Islamic self- identity.

This study shows that Iqbal critical discourse is characterized by for spiritual nature to uplif the Muslim Society, develop commitment to spiritual education as ordained by Islam, and build Islamic knowledge system based on Holy Quran, Prophetic Hadith, consensus- *Ijma'* and deductive analogy- *qiyas*.

Keywords:, Discourse horizon, criticism approach, philosophical premises, intellectual premises, Epistemological premises, Civilizational project.

---

* دكتوراه في اللغة من جامعة الجزائر سنة ٢٠١٠م، نائب رئيس قسم العقائد والأديان بكلية العلوم الإسلامية جامعة الجزائر١. البريد الإلكتروني: mezilak@gmail.com

تم تسلم البحث بتاريخ ٢٠١٥/٣/١٠م، وقُبل للنشر بتاريخ ٢٠١٥/١١/١٥م.

مقدمة:

سأحاول في هذا الدراسة أن أقدم افتراضاً يقوم على تشييد ما سميته أفق الخطاب النقدي ومنطلقاته المعرفية والفكرية والفلسفية في مشروع إقبال الحضاري، ويمثل هذا المشروع ما قام به المفكر محمد إقبال خلال أزيد من عقدين من الممارسة والإنتاج الدائبين في ميدان الدراسات الفلسفية والفكرية والأدبية، ولا يشير محمد إقبال في أعماله إلى مفهوم أو مصطلح آفاق الخطاب النقدي، بل هو مفهوم ملاحظ تكوّن لدي أثناء قراءتي وتتبعي لمسار أعماله.

وبما أن الأفق هو ما نرمي الوصول إليه، من تخطيط أو دراسة معززة بإمكانيات مادية وغيرها، فآفاق الخطاب النقدي، مثله مثل أي مشروع فكري ثقافي، يختلف عن المشروع المادي المحدد، غالباً، في الزمان والمكان، يصعب ضبط بعض مستوياته وتحققاته، ومع ذلك فأفق الخطاب النقدي مرهون في تحققاته بالتراكمات الثقافية والفكرية التي تخلقها قراءات وإنجازات متعددة للأفراد.

وهذا البحث يترجم المنطلقات المعرفية والفكرية والفلسفية للخطاب النقدي في مشروع إقبال الحضاري، وكيف رسم إقبال من خلال فلسفته الإصلاحية أفق الخطاب النقدي، ومبادئه ومنطلقاته المعرفية، وهل تتوفر كتابات ومؤلفات محمد إقبال على ما يؤهلها لتمثل في مجموعها مشروعاً نقدياً؟ وما هي المشكلة الجوهرية المرتبطة بمسألة التصور الإسلامي للذات والآخر والبناء الفكري والثقافي والفلسفي الغربي في هذه المقارنة؟

ونظراً لهذا كله أضحى من اللازم في زماننا دراسة أفق الخطاب النقدي ومنطلقاته المعرفية والفكرية والفلسفية لمحمد إقبال، المتميز بطابعه النقدي وبالتحليل المنطقي الرزين، وليس اختيارنا إذن لصيغة أفق الخطاب النقدي إلحاحاً فحسب على المظهر الحركي الديناميكي للتجديد والإصلاح، وإنّما على الخصوص إبرازاً للطابع الجدلي للتجديد، وارتباطه الدائم بما ليس هو؛ أي بما أصبح يسمى عندنا التحديث والتجديد،

هذه المسلّمة تبيّن أهمية البحث في فكر محمد إقبال، المتعلقة بأصل مشكلة الإصلاح والتجديد الفكري، خاصة وأن التحديدات تكشف لنا الهدف من البحث، لذلك نحاول من خلال هذه الدراسة الوصول إلى الإجابة عن التساؤلات، من خلال:

أولاً: مشروعية وأساس الخطاب النقدي ومقاربة إقبال الخطاب الحامل للخطاب الديني.

ثانياً: معرفة وظيفية الخطاب النقدي ومنطلقاته المعرفية والفكرية والفلسفية عند إقبال.

ثالثاً: هدف إقبال النقدي، مع بيان شروط الإبداع في الخطاب القرآني، وعلاقة الجديد والتجديد بالتراث.

رابعاً: معرفة أفق الخطاب النقدي وهدفه عند إقبال ودوره في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة.

ونظراً لخصوصية الموضوع الذي نتناوله في دراستنا والتي تمت بصلة مباشرة لعلمي الخطاب والخطاب النقدي، فقد وقفت أمام مناهج البحث المختلفة لانتقاء المنهج المناسب لهذا الموضوع المهم، ووجدت هذا التناسب في منهجين، سوف أسير بإذن الله عليهما أثناء تلك الدراسة وهما: المنهج الاستقرائي الاستدلالي والمنهج التحليلي.

وسوف أستعرض في البداية الخطاب النقدي: مبادئه ومنطلقاته، ثم أعرض هدف إقبال النقدي وعلاقته بنقد القراءة الحداثية والتراثية.

أولاً: مبادئ الخطاب النقدي ومنطلقاته المعرفية والفكرية والفلسفية عند إقبال

ما يهمني في هذه الدراسة هي أعمال إقبال الفلسفية، ولا يفهم من الخطاب النقدي النظرة الأدبية لمؤلفات إقبال الشعرية، وإن استطاع إقبال إخضاع الفلسفة للشعر والفكر للنظم كما استطاع إخضاع الشعر للفلسفة. وننبه هنا أنّ اقبال وهو الذي احتكَّ بالحضارة الغربية وتعرفها، وتجلت فلسفته في الانفتاح مع الآخر، يمكن

النظر إليه على أنه يمثل التقاء المناقشات الفكرية والفلسفية من جديد، بين الفلسفة الإسلامية والفلسفة الأوروبية الحديثة، فقد اعتنى إقبال كثيراً بمناقشة أفكار المفكرين والفلاسفة الأوروبيين ومقولاتهم، سعياً منه لتمكين العالم الإسلامي والانخراط في العالم الحديث، فهل المبادئ الفلسفية التي أراد بها اقبال أن يقود الأمة الاسلامية إلى المقدمة كفيلة ببناء فلسفة دينية بناءً جديداً؟

١. مبادئ الخطاب النقدي عند إقبال:

من خلال قراءتنا لأعمال إقبال وسعيه ضمن مشروعه النقدي المعبّر عنه في ثنايا كتبه، نجده يتناول مشروعاً نقدياً متميزاً، هو بمثابة إنتاج فكري وبحث مستند من معطيات فلسفية، انطلاقاً لما يراه من الخمول والكسل واللامبالاة التي أصيبت بها الأمة. وتقوم أعمال محمد إقبال على مجموعة من المبادئ التي تؤهلها؛ لتشكل مشروعاً نقدياً؛ مبادئ ميزت تحليلات إقبال النقدية، ويمكن إيجازها فيما يأتي:

أ. مبدأ مشروعية الخطاب النقدي المستمر والمنتظم:

عندما نستعرض مؤلفات محمد إقبال، نجدها من بدايتها إلى نهايتها قد اتخذت مساراً منتظماً، تكمن من خلالها مشروعية خطابه النقدي، في ما سعى إليه بإعادة بناء الخطاب الفلسفي الديني بناء جديداً، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، وذلك نتيجة تطور المعرفة الإنسانية، منتقداً ضعف تفكير المسلمين وانشغالهم بأنفسهم. وأبصرهم بالأخطار المحدّقة بهم، وأرشدهم بالابتعاد عن البحوث الفلسفية التي لا جدوى منها، على الرغم من أن أحكام الشريعة قابلة للتجدّد والتطوّر، وأنّ سبب تأخر المسلمين هو اهتمامهم الشديد بالفلسفة الإغريقية التي طغت عليهم،[١] ليثبت لهم أنّ أوروبا نهضت لما ثارت على هذه الفلسفة، واشتغلت بعلوم الطبيعة المنتجة، وبجهد إقبال العظيم المتميز نجد مؤلفاته قد ظهرت بالصورة الآتية:

[١] الندوي، أبو الحسن علي الحسني الندوي. **روائع إقبال**، دمشق: دار الفكر، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م، ص٤٧.

الديوان الأول: صلصلة الجرس، (بانكا درا)،[٢] وهو نصوص شعرية وصف من خلالها إقبال مصائب المسلمين، وحثّهم على العمل والجد في سبيل استعادة مجدهم، منتقداً حالهم الذي آل بهم إلى تشتتهم وتفرقهم، فأصبح تفكيرهم تفكيراً خاملاً، ودراسة نماذج من ديوانه تسمح لنا بمعرفة إجابته عن الأسئلة الوجيهة التي واجهته.

ثم يأتي الديوان الثاني: (الأسرار والرموز)،[٣] يريد هنا إقبال مواصلة ما بدأه في عرض فلسفته الذاتية، وقد عبّر من خلاله عن أوجاع المسلمين وآلامهم، ليحيي في الأمة الأمل، ويبين أن الإنسان هو صاحب الهدف ليس الحيوان أو الجماد، ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم.

وفي الديوان الثالث: رسالة الشرق، (بيام مشرق)، نجد إقبال ينفتح في تطبيقاته على أنواع جديدة من الخطابات، وإن غاب فيه حس النقد لديه، وذكر إعجابه ببعض الشعراء الأوربيين وفلاسفتهم، منتقداً مذاهبهم وآراءهم تارة، ومبيناً موقفه منهم، بالقبول والرد، ومفرقاً بين الفلسفة والسياسة.[٤]

أما الديوان الرابع: (زبور العجم)،[٥] بدأه إقبال بالتساؤلات الآتية: ما هو التفكّر، وما العلم، وما العلاقة بين الممكن والواجب والقريب والبعيد، وما هو المحدث والقديم، ومن هي الذات، وماذا يعني (أنا الحق)، وما هو سر الوحدة وماذا تعني؟ ومن خلال هذا الديوان طرح فكره الفلسفي؛ إذ يدعو إلى القطيعة مع الماضي وإعادة بناء العالم من جديد.

ويكون الديوان الخامس (بال جبريل)، جناح جبريل، ديوان شعر لإقبال: بمثابة استمرار وتوسيع لممارسة إقبال النقدية، خطاب شعري صور فيه التحول العظيم الذي

---

[٢] إقبال، محمد. **ديوان إقبال، الديوان الأول: صلصلة الجرس، (بانكا درا)**، إعداد: عبد الماجد الغوري، نقله إلى العربية نثراً ثم صاغه بالعربية شعراً: الشيخ صاوي شعلان المصري، بيروت: دار ابن كثير، ١٤٢٨ه/٢٠٠٧م.

[٣] انظر: إقبال، محمد. **ديوان إقبال، الديوان الثاني: الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات**، نقله إلى العربية شعراً ونثراً: عبد الوهاب عزام، القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

[٤] انظر: إقبال، محمد. **ديوان إقبال، الديوان الثالث: رسالة الشرق، (بيام مشرق)**، نقله إلى العربية: عبد الوهاب عزام، باكستان: مجلس إقبال، ١٩٥١.

[٥] انظر: إقبال، محمد. **ديوان إقبال، الديوان الرابع: زبور العجم**، نقله إلى العربية شعراً: حسين مجيب المصري، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٧.

أصاب الأمة الإسلامية، نتيجته ضعف العالم الإسلامي في العاطفة والحب، فإذا تجـرّد الدين عن العاطفة والحب أصبح مجموعة من طقوس، وأوضاع، وأحكام لا حياة فيهـا ولا روح، ولا حماسة فيها ولا قوة.[٦]

ويأتي الديوان السادس: (ضرب الكليم):[٧] هنا عمّق إقبـال البحـث في بعـض التي طرحها سابقاً، كأهمية العقل والقلب، منتقداً المتمسكين بقاعدة القضاء والقـدر، وأن سبب نوم الشعوب هو غياب الذات.

ويستعرض إقبال في الديوان التاسع هدية الحجاز، (أرمغان حجاز)، الاتجاهـات والمذاهب السياسية وزعماءها، في صورة جلسة برلمانية حضرها شياطين العالم ووكلاء النظام الإبليسي. وقد صوّر من خلالها إقبال مكانة المسلم في قلب الصراع، وأن هناك مؤامرة حيكت ضده. وهو ديوان وجَّه عن طريقه إقبال رسالة يرفع من همّـة الأمـة الإسلامية في قصيدته البليغة (طلوع الإسلام)، قائلاً: "إذا رأيت النَّجوم شاحبةً منكدرةً تخفق، فاعلم أنَّ الفجر قريب... ."[٨]

أما كتابه (تطور الفكر الفلسفي في إيران إسهام في تاريخ الفلسفة الإسـلامية)،[٩] فجاء ليشكّل طفرة في مشروع إقبال النقدي، وانفتاحه علـى نظريـات وخطابـات جديدة، فاتّسع مجال الدراسة لديه ليشمل نظريات الفكر الغربي والفكر الشرقي، مبيناً مدى عمق معرفته بالتيارات الفكرية في الشرق والغرب، وما قدمـه مـن انتقـادات وتعليقات وتحليلات، والموازنة بين الفكر الإسلامي واتجاهات المفكرين الغربيين، وهو ما ميّز مشروع الخطاب النقدي لإقبال.

---

[٦] انظر: إقبال، محمد. **ديوان (بال جبريل)، جناح جبريل، ديوان شعر لإقبال**. قصيدة (ذوق وشوق)، ترجم من الأوردية إلى الفرنسية نثراً السيد ميرزا: سعيد ظفر شاغتي، والسيدة سوزان بوساك، ثم ترجمه من الفرنسـية إلى العربية نثراً: عبد المعين الملُّوحي، وصاغه شعراً: زهير ظاظا، دمشق: دار المحبة، ١٩٩٣م.

[٧] انظر: إقبال، محمد. **الديوان السادس: ضرب الكليم**، ترجمة: عبد الوهاب عزام، القاهرة: جماعة الأزهر الشريف للنشر والتأليف، ١٩٥٢م.

[٨] إقبال، محمد. **ديوان هدية الحجاز (أرمغان حجاز)**، ترجمه إلى الفارسية: حسن مجيب المصري، وللديوان دراسة وتحليل للشعر، تأليف: سمير عبد الحميد إبراهيم، باكستان: المكتبة العلمية، طبعـة اليـك رود لاهـور، ج٢، ص٥٠٨.

[٩] إقبال، محمد. **تطور الفكر الفلسفي في إيران إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية**، ترجمة: حسن محمود الشافعي، ومحمد السعيد جمال الدين، القاهرة: الدار الفنية للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

ويأتي كتاب (تجديد التفكير الديني في الإسلام)، [١٠] وهذا الكتاب الأخير للمؤلف؛ إذ توسعت دائرة النظر، وفيه أجاب عن الأسئلة السابقة في كتبه، ليكشف عن مشروعه الحضاري، إصلاح الفكر الإسلامي لإعادة بنائه من الداخل. ونستطيع القول إنه خرج من صلب تجربته السابقة؛ إذ يدفع مشروعه النقدي ليوضح الغرض منه ببيان مواضع الضعف الكثيرة، فتناولها بالانتقاد في صراحة وشجاعة.

مؤلفات إقبال بمثابة أفق جديد للدارسين، وإنجازات لإغناء الخطاب الإسلامي نظرياً ومفهومياً ومنهجياً.

ب. مبدأ التقويم والتوجيه:

لا شكّ في أنّ عناوين محمد إقبال تفصح عن ثابت منهجي يقوم عليه مشروعه النقدي، تكشف لنا أهم فرضيات مشروعه، وتبيّن لنا نظرة إقبال إلى العالم، كما تكشف لنا إيمان إقبال الراسخ بدور الدين الفعّال في توجيه حياة الفرد والجماعة، وامتلاكه للبعد الروحي والعرفاني، وقد كان إقبال واعياً بمهمته التي وكّل بها كفيلسوف ومفكر ومجدد للأمة، وهذا ما قاده إلى التقويم والتوجيه، وسيوسع ما قدمه من خلال:

– حث إقبال الأمة الإسلامية على الحياة والعمل واليقظة مما آلت إليه، فنجد ديوان (صلصلة الجرس) يحث فيه المسلمين على العمل والتضحية لاستعادة المجد، وذلك في قصيدة "الشكوى وجواب الشكوى"؛ لأنّ هدف الإنسان في تصور إقبال هو إثبات الذات لا نفيها، وأن مهمة المسلم الملقاة على عاتقه هي: "مهمة ضخمة؛ إذ عليه أن يفكر تفكيراً جديداً في نظام الإسلام كله، دون أن يقطع ما بينه وبين الماضي قطعاً تاماً،"[١١] مع الدعوة إلى بناء منهج للتعامل مع القرآن الكريم؛ لإيمانه العميق أنّ القرآن مصدر المعرفة والفكر والشرعية، لذلك رأى أن الفكر الأول الصادر عن الرسول مقبول وكافٍ في تلك المرحلة من أمتنا.

[١٠] إقبال، محمد. **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، ترجمة: عباس محمود، القاهرة: دار الهداية للطباعة والتوزيع، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

[١١] المرجع السابق، ص١١١.

– العودة إلى الذات: وهو مبدأ الإيمان بالذات، يدعو إقبال بنبرة حادّة إلى النهوض، وأن كلّ من أهمل ذاتيته يفنى، وأن نتطلع إلى الأمام والإسراع في توحيد الأوطان المقسّمة، يقول:

كلُّ مَنْ أهمل ذاتِيَّتَهُ فهو أولى النَّاسِ طُرًّا بالعَنَاء

لَنْ يرى في الدَّهْر قوميته كلُّ مَنْ قلَّد عيش الغرباء[١٢]

– حزن إقبال لأحوال الأمة وأوضاع العرب الفاسدة، بسبب عبث ملوكهم والركض وراء الملذات والشهوات، فانتقد ضعف تفكير المسلمين وانشغالهم بأنفسهم، وعدم اهتمامهم بالأخطار المحدقة بهم.

– وجود الإنسان في الدنيا هو التفكير والفعل: فُطر الانسان في نظر إقبال على الإبداع لا التقليد ودون الاعتماد على الآخرين، وهو من يرى العالم بفكره وخياله عالماً جديداً، فالدنيا:

جِدَّةُ الدُّنيا بتجديد الفِكَر ليست الدُّنيا بصخرٍ ومَدَرْ

همَّةُ الغائِص في "الذَّات" لها من غديرِ الماء بحرٌ قد زَخَر[١٣]

ت. مبدأ ايمان إقبال بحرية الفكر والتأويل:

تناول إقبال حاضر العالم الإسلامي بالنصح والتوجيه وبعث الأمل فيهم، ويقصد بحرية الفكر الاستفادة من الآخرين لا أكثر، والدفاع عنه، وهذا بدعوته إلى تجديد التفكير الديني في الإسلام، وإن كنا نجد إقبال قد أعطى أولوية للعمل والتجربة على جانب الرأي والتفكير، يقول: "إننا نرحب من أعماق قلوبنا بتحرير الفكر في الإسلام الحديث، ولكن ينبغي لنا أن نقرر أيضاً أن لحظة ظهور الأفكار الحرة في الإسلام هي أدق اللحظات في تاريخه، فحرية الفكر من شأنها أن تنزع إلى أن تكون من عوامل الانحلال... ."[١٤]

---

[١٢] إقبال، محمد. **ديوان إقبال. الديوان الثامن: والآن... ماذا نصنع يا أمم الشرق؟**، نقله إلى العربية: أحمد الغازي، وصاغه بالعربية شعراً ونثراً: صاوي شعلان المصري، دمشق-بيروت: دار ابن كثير، ٢٠٠٧، ج١، ص٣٨٨.

[١٣] إقبال، **ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج٢، ص٨٥.

[١٤] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٨٧.

كما يرى أن الانسان هو أساس الصلاح والفساد في أي مجتمع، والإنسان الحّر قلب مضيء وصاحب مروءة وحق، موضحاً أن المؤمن الحّر لا يقيده شيء إلا الشريعة أو الفطرة، يقول:

والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيِّدهُ لكن لخالقه في قيد أحكام[١٥]

وحرية الفكر في نظر إقبال لا تعني الخروج عن القيم والابتعاد عن المألوف، والانسلاخ من الذات، بل هي تدبر العالم، فلو وضعت حرية الأفكار في رأس جاهل لجعل الناس بهائم.[١٦]

كما أحيا إقبال بفكره أفق تحرر الشعوب، فقد آن الأوان كي يتحرر الشرق، بالثورة على النفوس وكسر القيود، بعد هذا السبات الطويل، يقول:

فيا أُمَمَ الشَّرْقِ فيم التَّواني لقد آن أنْ يُصْبحَ الشَّرْقُ حُرَّا

أكادُ أرى ثورةً في النُّفوس تشدُّ الحياة إلى الـمَجْد جَرَّا[١٧]

ويقصد بذلك أن تَدَّخُل الغرب وسيطرته للوطن العربي لن يدوم؛ لأن إرادة الشعوب أقوى من كلّ شيء، هدفه هو يقظة المسلمين كأمة وجماعة.

يظهر مما تقدم أن مشروع محمد إقبال في كتاباته ومؤلفاته تتوفر على ما يؤهلها لتمثل في مجموعها مشروعاً نقدياً، وأن المبادئ الفلسفية التي أراد بها إقبال أن يقود الأمة الإسلامية إلى المقدمة كفيلة ببناء فلسفة دينية بناء جديداً، فما هي إذن المنطلقات المعرفية والفكرية والفلسفية للخطاب النقدي لديه؟

٢. المنطلقات المعرفية والفكرية والفلسفية للخطاب النقدي عند إقبال:

أكّد إقبال في العديد من مؤلفاته منطلقاته المعرفية والفكرية والفلسفية التي حفّزته على تبنّي فكرة تجديد الأسس الفكرية والفلسفية للتفكير الديني، خصوصاً في كتابه (تجديد التفكير الديني في الإسلام).

---

[١٥] إقبال، **ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٥.

[١٦] المرجع السابق، ج٢، ص٦٦.

[١٧] إقبال، **الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات**، مرجع سابق، ج١، ص١٢٥.

فهل كانت المنطلقات المعرفية والفكرية والفلسفية ذات بعد علمي، ضمن رؤية يشكلها الفكر الديني الإسلامي، أو ذات مظاهر دينية إسلامية تقود الأمة الإسلامية إلى المقدمة كفيلة ببناء فلسفة دينية بناء جديداً؟

أ. نشأته في بيت إسلامي واتصاله الدائم بالذات الإسلامية:

نستطيع القول إن معرفة إقبال بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والتاريخ الإسلامي المجيد، والمعرفة بالحياة الإنسانية، من أهم المصادر الأساسية في فلسفة إقبال وأفكاره وتأملاته، ولا شكّ في أنَّ القرآن الكريم هو الأصل الأول للشريعة الإسلامية في تصوّره، فقد أقبل عليه منذ طفولته قراءة وفهماً، وهذا ما ميّز فلسفة إقبال في الأخذ بعين الاعتبار المأثور من الفلسفة الإسلامية، ويثبت أنّ القرآن منبع الفلسفة الإسلامية يعارض الفلسفة اليونانية في جوهرها، التي غشت أبصار بعض مفكري الإسلام في فهم القرآن،[١٨] يريد بذلك أن يكون الفكر الديني شديد الصلة بالواقع.

كما أن شعر إقبال وإن كان باللغة الفارسية، فإن مضمونه نابع من الروح الإسلامية، فجاء شعره ذا رؤية نابعة من عقيدته وإيمانه بالله، يقول في قصيدة حديث الروح:

إذ الإيمانُ ضاع فلا أمانٌ ولا دُنْيا لمن لم يُحْيِ دِينا
وَمَنْ رَضِيَ الحياةَ بغير دينٍ فقدْ جعلَ الفناء لها قَرينا[١٩]

هنا تتضح رؤية إقبال المتميزة في الاستفادة من القرآن الكريم في ضوء حركة خطابه النقدي الإصلاحي التجديدي، وأنه منبع فلسفته، فهي كلها غاية الإسلام ومقصده.

وتحتل السيرة النبوية المباركة مكانة مهمة في كتابات إقبال، فهي المصدر الثاني، والأصل الثاني للشريعة الإسلامية، ويظهر إعجابه بالحديث النبوي الشريف في رده

[١٨] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١١.
[١٩] إقبال، **صلصلة الجرس، (بانكا درا)**، مرجع سابق، ج١، ص٢٤.

على المستشرق(جولدتسيهر) Goldzieher الذي انتهى في بحثه أن الأحاديث في جملتها لا يوثق بصحتها،[٢٠] منتقداً رأيه، فكان شديد الإعجاب بشخصية الرسول ﷺ مشيراً إلى الاقتداء بأفعاله، جاء في شعر إقبال:

طينةُ المسلم درٌّ يا بُنيَ ماؤُها والنُّورُ من بحر النَّبيّ

قطرَ نسيان فغصّ في موجه وأبرزن، درّاً صَفَا، من لجهِ[٢١]

ومعرفة إقبال بالثقافة العربية وبالتاريخ الإسلامي المجيد التي هضمها أثناء مراحل دراسته، زاد من أهمية خطابه النقدي. ويذكرنا بصورة فنية نقدية حال الأمة الإسلامية في عزها ومجدها، وما آلت اليه بلاد الإسلام من المشرق إلى المغرب؛ إذ جاءت في صورة شكوىً وعتاب ولوم، وأنين وحنين، واصفاً ما حدث للأُمّة الإسلاميّة منذ ثلاثة قرون، ومبيناً عناية القرآن بحال الأمة بوصفه مصدراً من مصادر المعرفة.[٢٢]

ومعرفة إقبال بالحياة الإنسانية، يبيّن مدى ارتباطه واتصاله بالعالم الإسلامي وليس فقط في القارة الهندية؛ إذ نجد اهتمامه الشديد بإيقاظ الشباب وإثارة حماسهم وعاطفتهم، وأنهم يعيشون في فراغ فكري وعقدي،[٢٣] ليبين لهم أنهم رجال الغد، وبُناة الحضارة، وعلى سواعدهم تُكتَسب العزة والكرامة، وأنّ المسلم هو باني العالم الجديد،[٢٤] ويُلقي إقبال باللوم على العصر والمدنيّة الحديثة في إفساد الشباب.

وشِعْر إقبال الانساني المليء بالعواطف الإنسانية، يبين وقوفه جانب الشعوب المستضعفة، فنادى بوحدة الجنس البشري مقتدياً بالرسول الأكرم، كما وظّف شعره لخدمة المجتمع، كمطالبته بحقوق المرأة التي ضمنها لها الإسلام، وحارب الشذوذ والفساد والسفور.

يجد المشروع النقدي لإقبال تحققاته في نموه المطّرد وتأثيراته الفعلية واهتمامه بكل ما يعيد للأمة الاسلامية مجدها وحضارتها، فقوة إقبال وقدرته النقدية جعلته يوظف

[٢٠] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٠٢.
[٢١] إقبال، **صلصلة الجرس، (بانكا درا)**، مرجع سابق، ج١/١٠٣.
[٢٢] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٨٨.
[٢٣] الندوي، **روائع إقبال**، مرجع سابق، ص٦٩.
[٢٤] إقبال، **ديوان هدية الحجاز (أرمغان حجاز)**، مرجع سابق، ج٢، ص٥٠٩.

معرفته بالتاريخ الإسلامي، مما أثمر رؤية رسمت لنا فلسفته للحياة والوجود والإنسان والتاريخ.

ب. معرفة إقبال للثقافة الغربية أوسع من معرفته بالثقافة الإسلامية:

يمتلك إقبال معرفة واسعة وعميقة بالأفكار الفلسفية والاجتماعية الغربية، لاتصاله المبكر بالفلسفة وتكوين المعرفة بها، وتعمقه في دراستها وتحصيلها في جامعات غربية كبريطانيا وألمانيا، ليس حباً في الثقافة الأوروبية، وإنما حباً في التطلع إلى مناهج البحث الحديث وأساليبه، وإلماماً بثقافة العصر، فسافر إلى لندن وألمانيا، هنا أحسّ بخطر التيارات المنحرفة في أوروبا، وتطلع كثير من شباب المسلمين نحو الثقافة الغربية.

كما كان على دراية تامة بالفلسفة اليونانية التي لم تكن وحدها حضارة حرية الفكر، فكثير ما وقع فيها اضطهاد المفكرين الأحرار مثل سقراط وأفلاطون،[٢٥] وكان على وعي تامّ بالفلسفة الأغريقية، وبالفلسفات الحديثة والمعاصرة، فضلاً عن إلمامه بنظريات التقدم العلمي، التي جاءت بنظرة جديدة للكون، فتحت آفاقاً جديدة من النظر إلى المشكلات الجديدة بين الفلسفة والدين.[٢٦] وبذلك تكونت لدى إقبال معرفة واسعة بالفكر الغربي، صار بإمكانه مناقشة أولئك المفكرين الأوروبيين لما امتلكه من كفاءة وقدرة على ذلك.

ولعل هذا جعل إقبال يعتمد أكثر على الفكر الغربي في فهم الموروث العربي الإسلامي في ضوء هذه المعرفة، "ولو أدى بنا ذلك إلى مخالفة المتقدمين."[٢٧] ويرى في الفلسفة الغربية وسيلة للتحديث، ويوظف إقبال أسماء المذاهب الفلسفية الغربية مثل العقلانية والمادية والمثالية والواقعية لقراءة التاريخ الإسلامي خاصة علم الكلام،[٢٨] وذلك لإيمانه أنّ سّر تقدم الغرب هو التمسك بالعمل، بالمقابل تكاسل العالم الإسلامي

[٢٥] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٦.
[٢٦] المرجع السابق، ص١٦.
[٢٧] المرجع السابق، ص١١١.
[٢٨] المرجع السابق، ص،٤٧.

عن ذلك، مبيناً سبب ذلك هو إهمالهم للذات، فالذات هي مصدر العمل، وأنّ العمل أساس الوجود والخلود. ويعني هذا احترام إقبال للعلوم الحديثة دون التنكر للماضي، وعلى المسلم أن يعيد التفكير في مجمل النظام الإسلامي؛[٢٩] إذ إن مفهوم المراجعة بناء على تطور المعرفة جزء أساسي في تطور الفكر الإسلامي.

ومعرفة إقبال الواسعة للثقافة الغربية لا ينفي أنه صاحب ثقافة جامعة بين الشرق والغرب، فانتهج سياسة الهدم والنقد، ووقف منها موقف الناقد الرافض، وغير المتقبل لظروف المجتمع الغربي وحضارته وأفكاره، يذكر منتقداً الفكر العقلاني الغربي في قوله: "إن مثالية أوروبا لم تكن أبداً من العوامل الحيّة المؤثرة في وجودها، ولهذا أنتجت ذاتاً ضالة... وصدقوني أنّ أوروبا اليوم هي أكبر عائق في سبيل الرقي الأخلاقي للإنسان."[٣٠]

ويرى إقبال أن تفوق الغرب على المشرق لا يعني الانقياد التام، بل أن نتناوله تناولاً نقدياً، فعلى المسلم "اليوم أن يُقدّر موقفه، وأن يُعيد بناء حياته الاجتماعية على ضوء المبادئ النهائية وأن يستنبط من أهداف الإسلام التي لم تتكشف بعدُ إلا تكشّفاً جزئياً."[٣١]

ولهذا فإن منطلقات إقبال المعرفية الواسعة والعميقة للأفكار الفلسفية والاجتماعية الغربية، تظهر المشروع النقدي لإقبال، وأنه لا يريد أن يحمل النقد على مناهج غربية، مع استحضاره لأمثلة من التراث العربي النقدي والغربي، المؤسسين لفكرة التقابل بين التراث العربي القديم والثقافة الأوروبية الحديثة.

ت. معالجة إقبال لقضايا المسلمين بأفكار فلسفية:

يعرض إقبال أفكاره ووجهات نظره ثم يعالجها بأفكار فلسفية وفقاً لطبيعة المسألة مع الشرح والتعليل. وهذا منطلق آخر يكشف عن البُعد الفلسفي لفكر إقبال،

[٢٩] المرجع السابق، ص١١٣.
[٣٠] المرجع السابق، ص٢١٢.
[٣١] المرجع السابق، ص٢١٣.

خصوصاً في تحديد التفكير الديني؛ منطلق استند إليه إقبال كبعد معرفي، للكشف عن تأملاته الفكرية والفلسفية، وقد صرّح إقبال بأنه يعدّ المنهج الفلسفي هو الحقل المناسب لتقديم الإسلام للناس، بل يقول: "فالفلسفة من غير شك حق الحكم على الدين."[٣٢] ولعل هذا نابع من تأثره بالمنهج الفلسفي المادي، وتأثره بالفلسفة الأفلاطونية، وتبنيه فكرة الذات، وإن كانت غايته الدين لا الفلسفة، فكانت مهمته بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديداً، آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، يقول: "أحاول بناء الفلسفة الدينية الإسلامية بناء جديداً آخذاً بعين الاعتبار المأثور من فلسفة الإسلام، إلى جانب ما جرى على المعرفة الإنسانية من تطور في نواحيها المختلفة."[٣٣]

لذلك فالعناصر المنهجية التي يكتب بها إقبال ترتبط بأساس نظري وفلسفي، وإن كان إقبال قد نجح في مراوغة قارئه حين استند إلى منهج القدماء في طريقة قراءة التراث الإسلامي لإصلاح العالم الإسلامي والفكر الإسلامي، ولكنه بالمقابل نجده يؤكد في العديد من المناسبات على العودة إلى التراث النقدي في إطار أوروبي، فالعالم الإسلامي حسب رأيه بإمكانه الاندماج والانخراط والتلاؤم. ولأنه "مزود بتفكير عميق نفاذ، وتجارب جديدة، ينبغي عليه أن يقدم في شجاعة على إتمام التجديد الذي ينتظره، على أن لهذا التجديد ناحية أعظم شأناً من مجرد الملائمة مع أوضاع الحياة العصرية وأحوالها."[٣٤] يريد بذلك أن يلفت النظر إلى ما تفرضه التحديات الفلسفية الفكرية والعلمية.

وتصور إقبال الذاتي وتقويمه لبعض الحركات الحديثة التي ظهرت في العالم الإسلامي كالبهائية والقاديانية وحركة أتاتورك في تركيا، ومعايشته تلك الأفكار والمواقف، من دون أدنى تحيّز أو تحامل على هذه الأفكار أو تلك الشخصيات، يدخل هذا ضمن دفاعه عن حرية الفكر والتأويل. وربما أراد إقبال لفت انتباه الشباب المسلم بعد أن تشبث بالغرب ونفى الذات، ليعود لحاضرة أمته ويشدّهُ إلى وطنه.

---

[٣٢] المرجع السابق، ص٩.

[٣٣] المرجع السابق، ص٢ و٤.

[٣٤] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢٠٦.

لكن معالجة إقبال لقضايا العالم الإسلامي بأفكار فلسفية، لم يحل دون هيمنة الوحي القرآني على الفلسفة كمصدر للتوجيه، ويتجلى ذلك في نقده للفلسفة اليونانية، وأنها مخالفة لروح القرآن، وجاءت محاولته الفكرية مبيناً للقيم الذاتية للإسلام، ومنتقداً الفكر الفلسفي الإسلامي واتجاهاته الكبرى، عند الأشاعرة مثلاً والمعتزلة وأبي حامد الغزالي وابن رشد وغيرهم، ومدى تأثرهم بالفلسفة اليونانية.[٣٥]

وتبيّن أعمال إقبال الشعرية والنثرية مدى اهتمامه بموضوع التصوف والأفكار الصوفية في المجال الإسلامي، ببيان دور القدماء من الصوفية، منتقداً في ذات الوقت أصحاب التصوف في العصر الحديث، مؤكداً أن التصوف هو حصيلة متوقعة ولازمة لما تمخضت عنه قوى فكرية وأخلاقية شتى، منتقداً آراء المستشرقين غير الصحيحة الذين ربطوا نشأة التصوف في المجال الإسلامي بمؤثرات خارجية، مثل فون كريمر[٣٦] ودوزي[٣٧] اعتبر مصدرها بالفيدتا الهندية، ومن المستشرقين مثل ميركس ونيكلسون،[٣٨] حدد مصدرها بالأفلاطونية الحديثة.[٣٩]

بمعنى أن فلسفة محمد إقبال الدينية الإصلاحية ما هي إلا استمرار لجذوة التجديد للحضارة العربية الإسلامية، لأنّه أعاد قراءة الفكر الإسلامي وفق تصور إنساني في ضوء التجربة الصوفية الروحية، عن طريق جلال الدِّين الرومي والبسطامي والحاتمي،

---

[٣٥] المرجع السابق، ص١١.

[٣٦] أَلْفْرد فن كْرِيمَر (١٢٤٣م/ ١٣٠٦هـ، توفي ١٨٢٨هـ/١٨٨٩م) مستشرق نمساوي، كان قنصلاً في مصر وبيروت، صاحب كتاب تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق في عهد الخلفاء)، انظر:

– مراد، يحيي. **معجم أسماء المستشرقين**، بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م، ص٨٩٢.

[٣٧] رَيْنْهَارْت دُوزي Reinhart Dozy) (١٨٢٠م، ١٨٨٣م)، مستشرق هولندي، من أصول فرنسية بروتستانتية، له العديد من الكتب من أشهرها؛ "معجم دوزي بالعربية والفرنسية"، وكتاب "العرب في دولة العبَّاديين"، وكتاب "تاريخ المسلمين في إسبانيا"، انظر:

– بديوي، عبد الرحمن. **موسوعة المستشرقين**، بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٩٣م، ص٢٥٩.

[٣٨] رينولد ألين نيكلسون (١٢٨٥م، ١٣٦٤هـ، توفي ١٨٦٨هـ- ١٩٤٥ م) مستشرق إنجليزي. متخصص في التصوف والأدب الفارسى ومن المهتمين بترجمة أشعار جلال الدين الرومي، انظر:

– بديوي، **موسوعة المستشرقين**، مرجع سابق، ص٥٦٣.

[٣٩] إقبال، **تطور الفكر الفلسفي في إيران إسهام في تاريخ الفلسفة الإسلامية**، مرجع سابق، ص٨٢.

موضحاً أصول المذهب الصوفي في القرآن الكريم والحديث الصحيح، الإيمان بالغيب، الله نور السموات والأرض، والروح، والعدل والإحسان.[٤٠]

ث. نزوع كثير من المسلمين نحو الغرب وانقسام العالم الإسلامي فكرياً وثقافياً:

وهذا منطلق مهم في فلسفة إقبال المعرفية والفكرية في خطابه النقدي، فاحترامه للماضي والتاريخ ظل يستلهمهما في تكوين مشروعه النقدي عن إصلاح المجتمع، فانتقد محمد إقبال ظروف العالم الإسلامي وتخلّفه وانحطاطه، باندفاع بعض مثقفي العالم الإسلامي بحماس للأفكار والفلسفات الأوروبية، وتشبثهم بالنظم الغربية وقطع صلتهم بماضيهم الإسلامي، وأنهم يدورون في أفق محدود ويسعون وراء العلوم الأجنبية غافلين عما في بلادهم من أعراف وقيم روحية فأصابهم الغرور، فدعاهم إلى العودة للإسلام.[٤١]

ومنطلق نقد إقبال للاتجاهات الكبرى للفلاسفة الإسلاميين، معرفته الواسعة بالتيارات الفكرية في الشرق والغرب كما ذكرنا سابقاً، مثل "الأشاعرة" و"المعتزلة" و"أبي حامد الغزالي" و"ابن رشد". ويرى إقبال أن تأسيس الدين على الشك الفلسفي عند "أبي حامد الغزالي" يتعارض مع روح الدين وتعاليم القرآن، يقول: "اتجه الغزالي إلى إقامة الدين على دعائم من التشكك الفلسفي، وهي دعائم غير مأمونة العواقب على الدين تماماً...،"[٤٢] وأن رؤية "ابن رشد" وتأثره بفكر "أرسطو" صاحب مذهب خلود العقل الفعّال، يتعارض مع نظرة القرآن إلى قيمة النفس الإنسانية وإلى مصيرها، يقول: "بهذا غابت عن ابن رشد فكرة إسلامية مثمرة عظيمة وساعد عن غير قصد على نمو فلسفة للحياة تورث الضعف، وتغشى على بصر الإنسان عند نظره إلى نفسه وإلى ربه وإلى دنياه."[٤٣]

---

[٤٠] المرجع السابق، ص٨٨-٨٩.

[٤١] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٠٨.

[٤٢] المرجع السابق، ص١١.

[٤٣] المرجع السابق، ص١١.

واشتغال إقبال بالسياسة وتوثيق صلته بأحداث المجتمع الهندي، ثم انتخابه عضواً بالمجلس التشريعي في البنجاب، ساعد على تحديد النقطة المحورية في تصور إقبال للعالم وللإسلام؛ إذ نادى بضرورة انفصال المسلمين عن الهندوس وتأسيس دولة إسلامية، نتيجة نزوع كثير من المسلمين نحو الغرب، فكان بمثابة إستراتيجية تقوم أساساً على فكرة النقد؛ إذ سعى إقبال بفلسفته الاصلاحية الموازية والمماثلة لأوضاع المسلمين، والعودة إلى النظم الإسلامية.

ج. امتلاك إقبال البعد الروحي والعرفاني:

الجانب الروحي في فكر إقبال له تأثيره في كتاباته؛ إذ تميّز خطابه النقدي بطابع روحي، صار له هدف وغاية ومضمون، والمقصود به ترقية المجتمع روحياً، والالتزام بالتربية الروحية كما أمر بها الإسلام، والارتباط الوثيق بالله سبحانه وتعالى، وانشداده النفسي والعاطفي به؛ من حيث الإيمان، والحب، والإخلاص، وهو الأساس لأي شخصية إنسانية قال رحمه الله: "إنّ الإنسانية تحتاج اليوم إلى ثلاثة أمور: تأويل الكون تأويلاً روحياً، وتحرير روح الفرد، ووضع مبادئ أساسية ذات أهمية عالمية توجه تطور المجتمع الإنساني على أساس روحي."[٤٤]

ويرى إقبال في القرآن المنهج الأمثل ليوقظ في النفس شعوراً أسمى، بين الخالق والمخلوق؛ لأن الواقع قد عرف صراعاً متبادلاً بين الدين والحضارة، لهذا ثمة حاجة إلى استقرار الحياة الروحية، التي يمكن السمو بها عن طريق تجلي عالم جديد في النفس وهو ما يقرّه الإسلام، ولا يعرف تعارضاً بين المثال والواقع كما هو الحال في النصرانية؛ لأن الخطاب القرآني قد نص في العديد من الآيات أن الحياة رسالة والإنسان هدف، فدعا إلى التأمل في الطبيعة وتجربتها.[٤٥]

وبرز اهتمام إقبال بالتصوف والأفكار الصوفية، فالتجربة الصوفية لديه تجربة الأنا الإنساني المستقل إزاء الأنا المطلق اللامتناهي الذي هو الله. ويترتب عليها إثبات الوجود الإنساني، موضحاً طبيعته وأرضياته الفكرية المكونة له في المجال الإسلامي،

[٤٤] المرجع السابق، ص٢١٢.
[٤٥] المرجع السابق، ص١٧-٢٣.

منطلقاً من أن الرياضة الباطنية هي الهدف الأسمى للدين، وهي المصدر الأسمى للعلم الإلهي وهو أسبق من ضروب التجارب الإنسانية، والقلب نوع من علم الباطن، وهذا ما تقرّه الكتب المنزلة وأعمال الصوفية.[٤٦] وهو يبرز هذه الروح العرفانية بقوله:

"انشد العون من شهود ثلاثة لتتحرى حقيقة مقامك

أولها عرفانك لذاتك

فانظر نفسك في نورك أنت

والثاني معرفة ذات أخرى

فانظر نفسك في نور ذات سواك

والثالث المعرفة الإلهية

فانظر نفسك في نور الله

فإذا كنت ثابت الروع في حضرة نوره

فاعتبر نفسك حياً باقياً مثله."[٤٧]

ويقف إقبال موقف الناقد من تجارب الصوفية بملاحظاته النقدية التي أبداها على التجربة الصوفية، بوصفها تجربة نفسية مباشرة، مثلها مثل التجارب الإنسانية، فهي حالة ذاتية لا يمكن الاطلاع عليها ونقلها.[٤٨]

يبدو أن هدف إقبال هو بعث الصوفية بشكل جديد، بدل صوفية اليأس والاستسلام والهروب من الدنيا والقعود عن العمل، لذلك وقف إقبال من تلك الفلسفة موقف الناقد، فهي فلسفة تنذر بالضعف والفناء، ومعارضتها بفلسفة جديدة تبشر بالقوة والأمل والتفاؤل، فالحياة الصحيحة حياة سعي ونمو ودأب وإقدام، وهو مقصد الحياة، فالمسلم يحمل على عاتقه عبء الدين والدنيا، معتمداً على ذاتيته، يقول إقبال:

---

[٤٦] المرجع السابق، ص٢٤.

[٤٧] المرجع السابق، ص٢٣٢.

[٤٨] إقبال، **ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج٢، ص٧٤.

عبءٌ على المؤمنِ ذي الليالي الدِّينُ والدولةُ فعلُ هازي
ولا أرى نشوان في كِفحٍ فليس إلا كَلِمٌ نَوازي
فإن تكن ذا همَّة فأقدم وابتغ فقراً أصله حجازي[٤٩]

ومما ترتب على هذه الدراسة المنطلقات المعرفية والفكرية والفلسفية للخطاب النقدي عند إقبال، المتميزة بطابعها النقدي وبالتحليل المنطقي الرزين؛ إذ ساهم بشكل إيجابي في نقد الأسس الفكرية والمعرفية للحضارة الغربية وبناء الهوية والخصوصية وإثبات الذات للأمة الاسلامية، مما سيكون منطلقاً للحديث عن فلسفة إقبال الاصلاحية في هدف الخطاب النقدي وأفقه.

ثانياً: هدف الخطاب النقدي وأفقه عند إقبال ودوره في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة

لا شكّ في أنّ عناوين محمد إقبال تفصح عن ثابت منهجي يقوم عليه مشروعه النقدي، هدفه نقد واقع المسلمين، وإعادة النظر في واقع المسلمين، وذلك باكتشاف العناصر الأساسية للدين.

١. هدف إقبال النقدي:

يهدف إقبال في خطابه النقدي إلى ترسيخ وتوسيع ما قدمه في كتابه (تجديد التفكير الديني)، وذلك بالدعوى إلى القراءة التراثية؛ أي علاقة الجديد والتجديد بالتراث، وشروط الإبداع في الخطاب القرآني، ولعل هذا ماثل في:

أ. تفكيك بنية الخطاب الذي يقوم عليه الفكر الإسلامي:

السؤال الذي استفز إقبال كثيراً، هو تخوفه من مبدأ الحركة في بناء نظام الإسلام للتخلص من رواسب الجمود التي أصيب بها الفكر الديني التشريعي، فهل شريعة الإسلام قابلة للتطور؟

[٤٩] المرجع السابق، ج٢، ص٧٢.

هنا ينتقد إقبال منهج القدماء المتقدمين من فقهاء الإسلام في طريقة تعاملهم مع القرآن، وإن احتوى على أفضل علم ومنهاج في حياتنا الاقتصادية الحديثة، وكيفية الاستفادة من تفسير الرسول ﷺ للقرآن، فَهْمٌ يعنينا عندما نحاول تأويل أصول التشريع تأويلاً جيداً. وينتقد إقبال الخلاف والجدل حول فكرة الإجماع في صدر الإسلام الذي تحول إلى نظام تشريعي ثابت وكذا القياس، وانتقد التفكير الإسلامي الذي اتجه اتجاهاً مباينا لاتجاه التفكير اليوناني.[٥٠] وانتقد إقبال ابن رشد فى نظرته للعقل؛ إذ ينظر إليه ابن رشد بأنّه خالد وفعّال، في حين يرى إقبال أن هذا الرأي يتعارض مع القرآن الذى يُكبر قيمة النفس الإنسانية ومصيرها،[٥١] كما وجّه نقده إلى الأشاعرة وأبي حامد الغزالي وغيرهم، والمعتزلة في إدراك حقيقة الدين،[٥٢] كاشفاً مدى الاستفادة من النتائج التي وصلت إليها أوروبا، والاستعانة بها لإعادة بناء الفكر الديني في الإسلام من جديد إذا لزم الأمر، يقول: "ولهذا لا بدّ أن يصاحب يقظة الإسلام تمحيص بروح مستقلة لنتائج الفكر الأوروبي،"[٥٣] ليتمكن العالم الإسلامي من الانخراط في العالم الحديث.

وذلك ليثبت إقبال من وجهة نظره قابلية الشريعة الإسلامية للتطور، يقول: "وهكذا عندما ندرس أصول الفقه الإسلامي الأربعة المتفق عليها، وما ثار حولها من ظلال، فإن ذلك الجمود المزعوم يتبخر، ويبدو للعيان إمكان حدوث تطور جديد."[٥٤]

لقد كان أسلوب إقبال النقدي بمثابة ردِّ فعل لما لاحظه وأدركه في الأمة الإسلامية وغير الإسلامية، مبيناً الداء وطرق العلاج، وأثبت أنه صاحب فلسفة حية منفتحة لا منغلقة، مما يجعل من خطابه النقدي منهجاً يعتمد المناهج السائدة في العلوم الإنسانية وفلسفاتها، وأنه خيار لا مفرّ منه.

---

[٥٠] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١١.
[٥١] المرجع السابق، ص١٣٣.
[٥٢] المرجع السابق، ص١٢-١٤.
[٥٣] المرجع السابق، ص١٦.
[٥٤] المرجع السابق، ص١٩٥.

ب. بناء منظومة معرفية وشبكة مفاهمية:

يعدّ إقبال من المتفردين السابقين إلى فحص مشروعات قراءة التراث الإسلامي لإصلاح العالم الإسلامي، وسدّ ثغراتها وتجاوزاتها المعرفية. وبنظرته هذه أسس منظومة معرفية وشبكة مفاهمية، ساهم عن طريقها في إنتاج خطاب نقدي في إطار رؤية معرفية متكاملة ومتماسكة، وذلك في ظل الوضعية المزرية التي آل إليها الفكر الإسلامي. وهدف إلى تأسيس منظومة معرفية يريد من خلالها بيان لماذا لم تنجح حركات الإصلاح سواء في العصور الماضية أو في العصر الحديث، وتأسيس منظومة معرفة إسلامية قوامها القرآن، والحديث، والإجماع، والقياس؛ إذ تُعدّ مرجعيات أساسية في بناء منظومة معرفية إسلامية، وبناء منظومة قيم الحضارية الإسلامية، وذلك ببناء منهج عملي لتقويم وتمكين القيم من النفوس، ووجد إقبال ذلك في القرآن وفي سيرة رسول الله ﷺ، ويتضح لنا ذلك من تأمله في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ (الأعراف: ٣٤)؛ إذ إن هذه الآية "من أمثلة الأحكام التاريخية العامة، يتجلى فيه التعيين والتحديد، وهي في صيغتها البالغة الإيجاز توحي بإمكان دراسة حياة الجماعات البشرية دراسة علمية باعتبارها كائنات عضوية،"[٥٥] بمعنى أن منظومة القرآن المعرفية قد أشارت إلى قواعد جزئية في التاريخ البشري، وتنبيهات تخص كثيراً من العلوم الإنسانية.[٥٦]

ويتكلم إقبال في الوقت نفسه عن الاقتداء بالغرب وتعلّم علومه، فقد دعا إلى الرجوع إلى مصادر الدين الأصلية أولاً، ثم إلى الاحتكاك بالعالم المعاصر على أساس القيم الجوهرية الإسلامية، وحفاظاً على ذلك كان موقف إقبال من بعض المتحمسين للحضارة الغربية وحفاظاً على القيم الإسلامية موقفَ الملتزم؛ إذ أراد أن ينبه إلى أن التقدم العلمي الغربي ما هو إلا دعوة للانهيار الخلقي، كتغلغل نظرية داروين، والفلسفات المادية في القرن التاسع عشر الميلادي، والتي وجدت أذناباً لها في مجتمعنا.

---

[٥٥] المرجع السابق، ص١٦٥.

[٥٦] بلكا، إلياس. **الوجود بين السببية والنظام**، هرندن: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ٢٠٠٩م، ص٢٨٩-٢٩٣.

وبأسلوب نقدي دائماً يرى إقبال أنه على كل مجتمع أن يقرر حاجاته ويتبيّن مواطن ضعفه، وعلى ضوئها يستطيع أن ينشئ منظومة معرفية خاصة به، قائمة على مجموعة من الأفراد الأقوياء، وهذا تلبية لنداء العصر، لنصل إلى المجتمع المثالي؛ مجتمع صدور الإسلام حيث وجدت العدالة، فهو تراث بمثابة قوة دافعة لبناء مجتمع جديد، لكن قراءة التراث قراءة تحليلية نقدية معرفية مع إعادة بناء مناهج التعامل مع القرآن، كمصدر منهجي ومعرفي للعلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية سيعود عليها بالفائدة،[٥٧] وإن دعا إقبال إلى القبول المطلق في التعامل مع التراث، وإن كانت هذه القراءة معيقة، لأن الاحتكام إلى التراث تجعل قضايا التراث هي المقصودة لذاتها، فهي محدودة في الزمان والمكان الذي وجدت فيه.

ونريد أن نشير إلى أن موقف إقبال ليس بالمهاجم ولا بالمؤيد لا للتراث ولا للحضارة الغربية، بل نجده قد التزم الحيادية في تعامله مع الفكر الفلسفي الغربي والتراثي، وهذا لمعرفته الواسعة وإدراكه للفرق بين الحضارة والاستعمار الغربي، وأنه لا تعارض بين الحضارة والقيم البنّاءة، لذلك لا بدّ من التمييز بين النظرية العلمية وتطبيقاتها، كأن يوظف الشخص الانترنت لأشياء تحطّ من القيم الخلقية، فهل نقول وضعه الغرب من أجلنا وأنها من الشيطان! إنّ هذا التصور والمفهوم يؤدي بنا إلى التخلف؛ لذا فإن أسلوب إقبال النقدي يمنح القارئ ذهناً نقدياً ووعياً إيجابياً تجاه كل ما ينتجه من معرفة وعلم.

٢. أفق الخطاب النقدي عند إقبال ودوره في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة:

حاول إقبال تشخيص الأزمة التي تعاني منها الأمة الإسلامية، وإن استقرّ في بيئة اجتماعية وثقافية وفكرية مختلفة، إلا أن خطابه الإصلاحي قد ساهم في بناء رؤية معرفية إسلامية بديلة، للنهوض الحضاري للأمة، وقد كان على وعي تامّ بأهمية التكامل المعرفي بين العلوم الإنسانية والشرعية، وتمخّض عن هذا الإدراك خطاب نقدي إصلاحي، ظهر جلياً في كتاباته المتميزة، ويمكن عن طريقها بناء شخصية إسلامية

[٥٧] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٩٩.

فاعلة قادرة على الأداء الحضاري الإسلامي، كمفهوم الدين والإيمان عند إقبال، ودور الدين في تكوين شخصية المسلم، وربط العلم بالعمل، واكتشاف روح الثقافة الإسلامية، وأن التوحيد جوهر الحضارة العربية الإسلامية وأساس النهوض الحضاري، والمواءمة بين التراث الإسلامي والفكر الغربي بمختلف تجلياته، وبين الدين والعلم. وهنا يقول إقبال: "...إنَّ السمو إلى مستوى جديد في فهم الإنسان لأصله ولمستقبله من أين جاء وإلى أين المصير، هو وحده الذي يكفل له آخر الأمر الفوز على مجتمع يحركه تنافس وحشي، وعلى حضارة فقدت وحدتها الروحية بما انطوت عليه من صراع بين القيّم الدينية والسياسية...."[٥٨]

ومنهج إقبال الإصلاحي إعادة بناء الذات والفكر وإنشاء مجتمع فاضل، انطلاقاً من تعاليم الإسلام، فالتغيير في نظر إقبال يبدأ في داخل النفس الإنسانية للخروج من الجمود الفكري الذي أوصل الأمة الاسلامية للتخلف، لذلك لا بدّ من بناء فكري ليخرج الفكر الإسلامي من أزمته، وبناء اجتماعي وسياسي لانعتاق الأمة الإسلامية من مأزقها الحضاري، لنتمكن من بناء شخصية إسلامية معاصرة. يذكر إقبال أن القرآن قد كوّن في أصحابه شعوراً بأهمية الواقع الذي نعيشه، فاستطاعوا بدورهم أن يصنعوا أسس العلم الحديث، فالجهد العقلي المبذول ما هو إلا لتجاوز عقبات العالم؛ إذ يمكّن الإنسان من التعمق في جزئيات التجربة الإنسانية، ويجد إقبال في آفاق الحياة وتجريدها غناء وخصوبة، وأن الخطاب القرآني يرشدنا إلى حقيقة التغيير العظيمة التي لا تتسنى لنا بغير تقديرها والسيطرة عليها حضارة قوية الدعائم، ولقد أخفقت ثقافات آسيا بل ثقافات العالم القديم كله لأنها تناولت الحقيقة بالنظر العقلي ثم اتجهت منه إلى العالم الخارجي.[٥٩]

أ. البناء الفكري:

البناء يراد به التخطيط والتصميم والتنظيم، والفكر هو العطاء المعنوي العقلي لأيّة أمة؛ أي العلم. والبناء الفكري لدى إقبال هو بناء وتشكل شخصية الإنسان، فالفرد

[٥٨] المرجع السابق، ص٢١٧.
[٥٩] المرجع السابق، ص٢٢.

بحاجة إلى حركة وتغيير ونمو، وتنمية قدرات الفرد الفكرية والعقلية، لتكييف حياته وبناء مقومات مجتمعه الذي ينتمي إليه، وعندما نتحدث عن الأمة الإسلامية في فكر إقبال الإصلاحي، نفهم من كلامه أن الأمة الإسلامية الواحدة تتوحد في عقيدتها؛ أي بالإيمان والعلم.

وبما أن الارتقاء البشري ظاهرة مقتصرة على الإنسان لانفراده بهذه القوة الإدراكية وهي "العقل"، دون غيره من الكائنات الحية الأخرى، فقد أولى إقبال أهمية خاصة للعقل البشري في فهم الحقائق مستنداً في ذلك إلى ما جاء في القرآن، مبيناً عناصر البناء الفكري الإسلامي، وأن للإسلام منهجاً فريداً في تحرير العقل من أغلال التحجر، فصحة العقائد ومعرفة الحق لا تتحقق إلا بحرية الفكر واستقلال الإرادة.

ويلفت إقبال النظَّر إلى أن العقل ضوء ومصدره العلم، وأن الحقائق لا يدركها الإنسان إلا عن طريق الملاحظة والتأمل في ظواهر الوجود، ويوقظ الأمم ويشحذ عزائمها، يقول:

تضيء عيني العقل من سناء ما ابن سينا كُحلت والرازي[٦٠]

وإقبال في متابعاته النقدية وفي بناء فلسفة إسلامية جديدة، يرى أنّ حلّ مشكلات الأمة الإسلامية لا يتحقق إلا بالإيمان والعلم،[٦١] فالعلم حسب إقبال سبب الرقي والازدهار، وقد كان دقيقاً في ذلك، ربما كونه عاش في مجتمع ابتعد عن التقوى والإيمان فتحول العلم إلى آلة للهدم يذكر قائلا:

إذا العِلْمُ حلَّ بِقَلْب الفتى أحلَّ به خَشْيةَ المتَّقين

ويزدادُ خوفاً منَ اللهِ حتَّى يردَّ الأمانَ إلى الخائِفِين

هو العلمُ لنا فيه كيمياءٌ إلى قدرةِ اللهِ يَهْدي البَصر[٦٢]

---

[٦٠] إقبال، **ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج٢، ص٦٣.

[٦١] إقبال، **الديوان الثامن: يا أمم الشرق**، مرجع سابق، ص٣٩١.

[٦٢] المرجع السابق، ص٣٩٢.

وهنا تتضح ملامح إقبال النقدية في فتح المدارك في مسار الإصلاح والتجديد، لذلك حثّ على إعمال العقل، فهو طريق للنقد الذاتي، وبه يمكن إدراك العالم، يقول:

يسيطر العقلُ على الكون أمير وطوى الأفلاكَ والأرضَ مسيرا

ذا جلالٍ يخضع الكون له غيرَ قلب ثار بالعقل جسورا[٦٣]

وبما أن العقل والقلب هما سلاح الذات في نظر إقبال، كون القلب قوة خارقة لاكتشاف الحقائق، فهو يفقه الأمور عن طريق العلم، ويبرز ذلك عند إقبال في مدى أهمية السمو بالنفس وتطهير الضمير؛ أي تربية ذات الفرد، ففي الغرب مات الضمير وفي العالم العربي ماتت الذوات. والإنسان في نظر إقبال أشرف المخلوقات، فالكائنات خلقت من أجله، فهو صانع نفسه، والخطاب القرآني يؤكّد حرية النفس، فهي أساس شخصية الفرد، وحين يعرف الإنسان قدرته في السيطرة على العالم، تتولد لديه رغبة في تربية الذات ليصل للمطلوب، يقول إقبال: "...وبعد فإن العقل لا يمكن أن يتصوَّر نفساً من غير أن تلحقها صفة؛ أي من غير منهج مطَّرد في السّلوك والطّبيعة كما رأينا، ليست ركاماً مادِّيّة بحتة شاغلة للفراغ، بل هي في بناء من حوادث أو منهج منتظم من السّلوك، وهي بوصفها هذا أساسية للذَّات الأولى..."[٦٤] يريد بذلك أن يبين وسائل الدفاع الذاتية ضد الإحباط الذي سيؤدي إلى الإصابة بالأمراض النفسية؛ لنبني أنفسنا في زمان تقدم فيه الغرب تقدماً كبيراً، بدل التأثر والاستهلاك.

ودرس إقبال أوضاع المسلمين دراسة عميقة فاحصة، فدعاهم إلى التخلص من عقدة النقص أمام الغرب، كاشفاً النقاب عن حقيقة الحضارة الغربية لتخليص المسلمين مما أصابهم من تقليد غيرهم، سببه الجمود الفكري الذي أصابهم، ما جعلهم يعيشون فراغاً روحياً ونفسياً، موضحاً أن النهضة الغربية ترجع في حقيقتها إلى حضارة المسلمين، وأنه لا سبيل للخلاص من ذلك إلا بالرجوع إلى الإسلام،[٦٥] ولا يمنع الفرد

[٦٣] إقبال، **ضرب الكليم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٩.

[٦٤] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٧١.

[٦٥] المرجع السابق، ص٢١٧.

شيء من النهوض، يذكر قائلاً: إن الهنود رفضوا تقليد الغرب، والإنجليز سادة فقط على جسد المسلم لا على قلبه.[٦٦]

ويكون إقبال بذلك قد قام ببناء رؤية صحيحة، تمكّن الشخصية المسلمة في عصرنا الحديث من إدراك القضايا والموضوعات المثارة في الفكر المعاصر وفهمها بصورة واضحة ومتكاملة ومنسجمة.

ب. البناء الاجتماعي والسياسي:

لم يكن إقبال فيلسوفاً فحسبُ، بل كان أيضاً مصلحاً ومربياً. ودعوته إلى الإصلاح الفكري والاجتماعي ركّز فيها على بناء الذات، التي تعدّ من الدعوات التي لا يُمكن أن يتجاهلها المسلمون بأي حال من الأحوال، فقد لاحظ إقبال رفض الإسلام من اعتبر قرابة الدم أساس الوحدة الإنسانية، يقول: "إن الإسلام يرفض اعتبار قرابة الدم أساساً للوحدة الإنسانية؛ لأنّ قرابة الدم عنده أصلها مادي مرتبط بالأرض،"[٦٧] فالعلاقة بين الأفراد وبين الذات والمجتمع أساس الوحدة الإنسانية.

وينوّه إقبال بإنشاء مجتمع فاضل وذلك بسمو الإنسان، فالأمة تنشأ من اجتماع الأفراد، فقيمة الفرد في أمته، وقيمة الأمة في أفرادها؛ ينمو الفرد في الجماعة وتنمو الجماعة عن طريق الأفراد، يقول:

هو بالأمَّة قلبٌ طامحُ وهو بالأمَّة سعيٌ رابحُ

روحه من قومه، والبدنُ سرُّه منْ قومه والعَلَنُ[٦٨]

وبناء على ذلك يريد إقبال تعريف المسلمين بأنفسهم وبأهدافهم الذاتية، ويبصرهم بحقيقة الإسلام وعظمه، وملئ قلوب الشباب بحب القرآن والسنة، ومشاركتهم في صناعة الفرد وصناعة المجتمع، فهو يؤمن إيماناً راسخاً بدور الدين وأثره

[٦٦] إقبال، **ديوان (بال جبريل)، جناح جبريل**، مرجع سابق، ج١، ص٤٢٩.
[٦٧] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص١٦٨.
[٦٨] إقبال، **الأسرار والرموز، أسرار إثبات الذات ورموز نفي الذات**، مرجع سابق، ج١، ص١٩٠.

الفعّال في حياة الفرد والجماعة في المجتمعات الإسلامية، يقول: "إنّ الدين في أعلى صوره ليس أحكاماً جامدة ولا كهنوتية ولا أذكاراً، ولا يتيسر إلا بالدين تهيئة الانسان كل العبء الثقيل الذي يحمله...،"[٦٩] غرضه دفع المسلمين للعمل والحركة لإثبات ذواتهم ومعالجة ما آلت إليه أوضاعهم، يقول: "فالدين استطاع دوماً أن ينهض بالأفراد ويغيّر الجماعات ويحوّلها من حالة إلى أخرى...."[٧٠]

يشير إقبال بهذا إلى أنّ الفرد لا تكتمل حياته إلا في ظل الجماعة، ونشر التوازن بين أفراد المجتمع الواحد، ونشر الحرية والمساواة بين بني آدم. ونجده يقيم مقارنة بين فلسفة الغرب وفلسفة الشرق؛ إذ يرى أن فلسفة الغرب التي اعرضت عن كل نشاط روحي قد انحازت كلياً إلى العقل، أما فلسفة الشرق؛ فيرى إقبال أنها على العكس من ذلك، لها طبيعة روحية، وإن كانت بحاجة إلى النزعة العقلية لاكتساب التوازن أيضاً.[٧١]

أراد إقبال فضح سرّ الحضارة الغربية وما يفتقد إليه العالم الحديث، وهو البُعد الروحي الذي منبعه الدين، الذي يُكسب الإنسان قوة ويبني مستقبله ويحدد مصيره، وأن شروط المجتمع الفاضل متصلة بعلاقات تبادلية بين أطرافه، بحيث لا مكان فيه للتقوقع والانعزال والاغتراب والانطواء على الذات.

خاتمة:

إنّ سبر أغوار فكر محمد إقبال في كتاباته ومؤلفاته لا يخلو من متعة، فهذه المؤلفات بمثابة آفاق جديدة للدارسين، مثلت في مجموعها مشروعاً نقدياً، وعملاً لا يمكن أن يتمّ عبر وريقات قليلة، برهن عن طريقها أنّ الوحي والعقل لا يتعارضان،

---

[٦٩] إقبال، **تجديد التفكير الديني في الإسلام**، مرجع سابق، ص٢١٧.

[٧٠] المرجع السابق، ص٢١٢.

[٧١] بوعزيزة، محمد العربي. **محمد إقبال فكره الديني والفلسفي**، بيروت-دمشق: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٩م، ص١٧٢.

محاولاً النهوض بالعقل المسلم وتجديده، ووضع خطة تقود الأمة الاسلامية إلى المقدمة، وبناء فلسفة دينية بناء جديداً.

ولا بدّ من الاعتراف بالمجهود العلمي الكبير الذي قام بـــه إقبـــال؛ إذ ظهـــر أن مشروعه يقوم على فلسفة اصطلاحية ذات خطاب نقدي بنـــاء، أغنـــت الخطـــاب الإسلامي نظرياً ومفهومياً ومنهجياً.

ومشروع إقبال النقدي بمثابة إنتاج فكري وبحث منبثق من معطيات فلســـفية؛ إذ حثّ الأمة الاسلامية على الحياة والعمل واليقظة مما آلت إليه بالعودة إلى الذات، لذلك فإننا نسجل عامة أن المبادئ الفلسفية التي أراد بها إقبال أن يقود الأمة الاســـلامية إلى المقدمة قد ميزت تحليلات إقبال النقدية، كمبدأ مشروعية الخطاب النقـــدي المســـتمر والمنتظم، وحزن إقبال لأحوال الأمة وأوضاع العرب الفاسدة، وأنّ وجود الإنسان في الدنيا هو التفكير والفعل، ويتمثل في مبدأ التقويم والتوجيه، وأساس الخطاب النقـــدي، ومبدأ إيمان إقبال بحرية الفكر والتأويل.

كشف لنا الخطاب الإقبالي عن البعد المعرفي والفلسفي لفكر إقبال، المتميز بالطابع الروحي، خصوصاً في تجديد التفكير الديني، كنشأته في بيت إسلامي ومعرفته الواسعة للثقافة الغربية أكثر من معرفته بالثقافة الإسلامية، واهتمامه الكـــبير بقضـــايا العـــالم الاسلامي بأفكار فلسفية دينية إصلاحية، استمراراً لجذوة التجديد للحضارة العربيـــة الإسلامية، وفق تصور إنساني في ضوء التجربة الصوفية الروحية، وبناء رؤية صحيحة تمكن الشخصية المسلمة في عصرنا الحديث من إدراك القضايا والموضوعات المثـــارة في الفكر المعاصر وفهمها بصورة واضحة ومتكاملة ومنسجمة.